

الفكرية والسياسية

عن الدبلوماسية القديمة والجديدة

اعتمدنا في هذا الفصل على:

- Horold Niclson, "The Evolution of Diplomatic Methods"
- "Diplomacy in A Changing World" Edited By: Kertesz & Fitzsinons.
- ABBA IBAN, "Diplomacy".
- Rbort Moore, "Third World Diplomat IN Dialogue With The First Word".

يعرف مؤرخ الدبلوماسية الشهير هارولد نيكلسون الدبلوماسية القديمة بأنها دبلوماسية المدرسة الفرنسية التي صاغتها نظرية وممارسة ريشيليو Richelieu، وكاليرز Callieres وهي الدبلوماسية التي تبنتها البلدان الأوروبية خلال القرون الثلاثة التي سبقت التحول الكبير الذي حدث عام ١٩١٩. وينظر نيكلسون إلى هذه الدبلوماسية كأفضل الأساليب لإدارة العلاقات بين دول متمدنة. فقد كانت في رأيه دبلوماسية كيسة، ووقورة، وتتصف بالاستمرارية والتدرج معا، وتعطى أهمية للمعرفة والخبرة، وتأخذ في الاعتبار حقائق القوة القائمة، وجعلت من الثقة وحسن النية والوضوح والدقة الصفات الجوهرية لأى مفاوضات سليمة، أما الأخطار والحماقات والجرائم التي تراكمت خلال هذه القرون الثلاثة وأضعفت الثقة في الدبلوماسية القديمة فإنها في رأى نيكلسون إذا فحصدت بدقة فس نجد أنها تعود للسياسة الخارجية الشريرة وليس لأساليب إدارتها وتفيذها.

والدبلوماسية القديمة هي التي تولاهها الدبلوماسيون المحترفون Professional Diplo- mats لفترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، ولسوء الحظ فإن نصيحة هؤلاء الحكماء لم يُلْتَمَتْ إليها في مؤتمرات فيينا وبرلين، ولم تُستثمر خدماتهم في الوقت الذي تولت فيه ضروب من النفوذ والتأثير البعيدة عن الدبلوماسية زمام الأمور.

وقد كانت الصفة اللصيقة بالدبلوماسية القديمة والمميزة لها هي السرية وخاصة في المفاوضات الأمر الذي يختلف تماما عن دبلوماسية المؤتمرات العامة - Public CONFER- ENCES التي أصبحت ملازمة للدبلوماسية منذ عام ١٩١٩. في الدبلوماسية القديمة كان السفراء هم الذين يتولون ويباشرون عملية التفاوض حول عقد معاهدة مع الحكومة المعتمدين لديها، وعلى هذا فقد كان السفير يعرف الساسة الذين سيتفاوض معهم معرفة مباشرة، ويعرف نقاط قوتهم وضعفهم وإمكان الاعتماد عليهم أو العكس، وكان على علم كامل بالمصالح الخفية وبالخبرات والطموحات والشعاب التي كان عليه أن يبحر فيها، وكانت مقابلاته المتكررة مع وزير الخارجية لاثثير الاهتمام لدى الرأى العام باعتبارها عملا روتينيا ، ولذلك كانت مناقشاتهم تظل خاصة وعقلانية وودية، وبطابع سريتها لم يكن هناك خطر من ظهور توقعات عامة حولها خلال مراحل تقدمها، ذلك أن كل المفاوضات تتكون من مراحل وتنانج فإذا أصبحت المراحل موضعا للنقاش العام قبل أن يتم الوصول إلى نتيجة فإن المفاوضات غالبا ماسترنج. فالمفاوضة هي أساسا موضوع للتنازل والتنازل المتبادل، فإذا ماتسرب التنازل المقدم من جانب أمام رأى عام لا يعرف عن التنازل المقابل

والمتوقع، فإن تشويشا كبيرا يمكن أن يحدث وقد ينهي المفاوضات. بالإضافة إلى ما عبر عنه أفضل دبلوماسي محترف لهذا القرن وهو TulesCombon، إن السفير في الدبلوماسية القديمة كان يتفاوض وهو متحرر من ضغط الوقت. وتبدو إنجازات الدبلوماسية القديمة فيما حققته مفاوضات فرنسا وروسيا وألمانيا والنمسا وإيطاليا وتحت رئاسة السير إدوارد جراي، حيث استطاعوا أن يصلوا إلى تسوية لأزمة البلقان عام ١٩١٣، وقد كان سفراءهم في المفاوضات يعكسون خلافات قومية خطيرة وحادة، إلا أنهم كانوا يمتلكون الثقة كاملة واستقامة وأمانة وتعقل وحذر ورشد، وكان لديهم مستوى مشترك للسلوك المهني، وكانوا يرغبون قبل كل شيء في منع أي إشعال للموقف، وكان الهدف العام للدبلوماسية القديمة التي سادت في القرن ١٩ هو الاستقرار الأوروبي وليس المساواة العالمية، وقد تحقق هذا الهدف من خلال الاتفاق الأوروبي عام ١٨١٥ الذي حقق لأوروبا مائة عام تقريبا من السلام وكان أبطال هذا الإنجاز هم رجال الدولة ودبلوماسيون مثل بسمارك ومترينخ وكاسترله، وبخلاف حرب القرم فإن القوى الكبرى في هذا الوقت: إنجلترا، فرنسا، بروسيا، روسيا، النمسا، وإيطاليا، لم تشترك في حرب بينها إلا لمدة ١٨ شهرا، في الوقت الذي شهد القرنان الماضيان ٦٠-٧٠ من الحروب الكبيرة بين القوى الرئيسية. غير أننا يجب أن نلاحظ أن هذه المائة عام من السلام - والتي تثير شجن وحنين الدبلوماسيين والساسة في الأجيال التالية، قد قامت في ظروف استثنائية وأساس نتيجة لتوازن القوى، ووجود شبكة من المصالح المتبادلة في التجارة، كما كان عدد الفاعلين في المسرح الدولي قلة، وقدم لهم صغر القارة الأوروبية فرصة التفاعل السريع، حيث زادت الألفة بين رجال الدولة والسفراء والتي تجاوزت الحدود القومية. ومع بلاطهم الملكي الذي كان نشطا بشكل خاص في الدبلوماسية، كون رجال الدولة والدبلوماسيون مجتمعا ارستقراطيا تجاوز القوميات، وكان هذا هو عصرهم الذهبي، وخلق التقدم الاقتصادي مع استمرار السلام سحرا يوتويا جعل كاتبها كبيرا مثل فيكتور هوجو يكتب عن «موت الحرب».

غير أنه مع مطلع القرن العشرين بدا أن النظام الدولي سوف يتميز بالاضطراب العنيف لا بالتناسق والاستقرار، وقد أزاحت الحرب الأولى ٤ إمبراطوريات كبرى من القوى السبع التي كانت على المسرح الدولي قبلها. وكان على الدبلوماسية التقليدية في جوهرها أن تهين نفسها وتكيف مع عصر ثوري جديد وكان التجديد الحاسم في هذا العصر هو إنهاء

الاحتكار الأوروبي نتيجة لدخول الولايات المتحدة فى المجموعة الصغيرة للأعضاء الكبار فى المجتمع الدبلوماسى. ورغم أن هذا التطور قد بدأ بالاتجاه الانعزالي الذى ساد الولايات المتحدة، وحيث كان هذا الاتحاد يود لو لم يكن للعالم الجديد سياسة خارجية على الإطلاق ابتعادا عن مشاكل أوروبا وصراعاتها وحروبها، وكان شعبها يريد أن يضع التجربة الأوروبية وراء ظهره، وأعلن جون آدمز أن عمل أمريكا مع أوروبا هو التجارة وليس السياسة أو الحرب، وحتى عام ١٩٠٦ كان للولايات المتحدة ٦ سفارات فى الخارج والباقي مفاوضات. غير أن هذا الاتجاه الانعزالي لم يصمد أمام التطورات التى أرغمت الولايات المتحدة أن تندمج فيها وتصبح هى ودبلوماسيتها من العوامل المؤثرة فى توجيه الحياة والدبلوماسية الدولية إن لم تكن هى العامل الحاسم فيها.

وقد توافق مع هذا التطور بدء تعرض الدبلوماسية القديمة أو التقليدية وأساليبها لهجوم مستمر منذ الحرب العالمية الأولى واستمر هذا الهجوم الذى صحبه تطورات، جذرية فى البيئة الدولية، حتى كادت الدبلوماسية القديمة أن تبذل منذ نهاية الحرب الثانية. ويلخص هانز مورجانتو الحجج التى استند عليها الهجوم على الدبلوماسية القديمة فى:

١- فقد اعتُبر أنها مستولة عن الكوارث السياسية التى حاقت بالبشرية خلال الحقب التى سيطرت فيها أساليبها، والمنطق يقول أن الأساليب التى ثبت عدم صحتها يجب أن تستبدل.

٢- أن الدبلوماسية التقليدية إنما تتعارض مع مبادئ الديمقراطية، لذلك كان علي الدبلوماسية أن تكون مفتوحة ومعرضة للفحص فى كل عملياتها.

٣- أن الدبلوماسية التقليدية بشكلياتها غير ذات جدوى ومضیعة للوقت، ومتعارضة بمساوماتها مع المبادئ الأخلاقية.

أما العوامل الحاسمة التى أدت إلى تراجع الدبلوماسية القديمة ونشوء الدبلوماسية الجديدة فكانت نتيجة ثلاثة تطورات رئيسية غيرت من تكوين العائلة الدولية، وطبيعة الاهتمامات الدولية ومن ثم أهداف العملية الدبلوماسية، ثم تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.

فبالنسبة للعامل الأول فقد كان عدد الدول التى تمارس العملية الدبلوماسية وتتركز فيها عند بداية نظام الدولة الحديثة عند منتصف القرن السابع عشر، ١٢ دولة أوروبية،

ومنذ هذا الوقت تضاعف هذا العدد عدة مرات. ففي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر حدث تحول أساسي حيث حصلت الولايات المتحدة ١٥ دولة لاتينية علي الاستقلال الأمر الذي ضاعف من الدول المكونة للمجتمع الدولي واتسعت الساحة الدبلوماسية حيث شملت نصف الكرة الغربي. ثم حدث نمو مفاجيء وإن كان بطيئا في منتصف القرن ١٩ حين انضمت إلى المجتمع الدولي الصين، واليابان وعدد من دول أمريكا الوسطى وليبيريا، ونما هذا التوسع بشكل أكبر بعد الحرب العالمية الأولى خاصة في البلقان وجنوب شرق أوروبا والشرق الأوسط حيث بلغ عدد الدول إلى مايقرب من ٦٥ دولة. غير أن العائلة الدولية شهدت أكبر توسع لها نتيجة لموجة الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية حين انضم ٧٥ عضوا جديدا خاصة من العالم العربي، وأفريقيا وآسيا والباسيفيك وحيث وصل عدد الدول التي تتمتع بعضوية الأمم المتحدة ١٨٥ دولة. وبطبيعة الحال نتج عن هذا التوسع في العائلة الدولية توسع كبير في الصلات والعلاقات الدبلوماسية، والمفاوضات، والأجهزة الدبلوماسية.

أما العامل الثاني في نشوء الدبلوماسية الجديدة فقد تمثل في التغيير النوعي في الاهتمامات الوظيفية للدول والمجتمع الدولي، وهو التغيير الذي نجم عن تقلص الحدود بين الدول، والثورة الصناعية وتزايد الاعتماد علي التجارة وتنوعها، والاكتشافات العلمية، والتداخل المتزايد بين الدول في الشؤون الثقافية والمالية والاجتماعية، وبدت علي الحكومات أن تتعامل مع نطاق واسع من القضايا والمشكلات، فحيث كانت اهتمامات الدول ومن ثم جهازها الدبلوماسي تنحصر في القرن ١٩ في عدد محدود من القضايا مثل قضايا السلام والحرب والاستراتيجية، وحماية المواطنين في الأراضي الأجنبية، ومشكلات الصيد وحقوق الملاحة والتجارة، وتسليم المجرمين، أما ماعدا هذا فكان يعتبر من قبيل الـ Lowpo- lieics التي إن أثارت الاهتمام فهي تترك للمستويات الوظيفية الأقل.

أما اليوم فقد اتسع نطاق اهتمامات الدولة بشكل أصبح يشمل، إضافه إلى الاهتمامات التقليدية، قضايا مثل الطعام، والطاقة، والمياه والبيئة، والسكان والهجرة، ومقاومة الإرهاب، والسكان، والانتشار النووي، والأمراض.

وقد جاءت ثورة الاتصالات والمعلومات لكي تحدث تغييرا نوعيا في طبيعة وأدوات الدبلوماسية في ظهور الدبلوماسية الحديثة، فالثورة التكنولوجية في مجال النقل والاتصالات أصبحت تسمح بإجراء اتصالات طويلة ومشاورات بالبرقيات والفاكس والخط

الساخن الذى يربط الرؤساء خاصة، وأصبح من الممكن عقد مؤتمرات وحوارات عبر الاتصالات السلكية واللاسلكية والأقمار الصناعية، ومكن هذا المتفاوضون وهم على مائدة المفاوضات الاتصال بعواصم بلادهم والحصول على توجيهات صناع القرار في عواصمهم. كما كان لثورة المعلومات وسرعة نقلها عبر الشبكات والقنوات التليفزيونية تأثير حاسم على عمل الدبلوماسى وكمية المتاح له من الأخبار والمعلومات والتقييمات، وجعله فى مركز الأحداث العالمية وهو فى مكتبه، وجعله هذا فى سباق مع الزمن لكى يلاحق هذه الأحداث ولا يتخلف عنها.

أما السبب الخامس الرئيسى لظهور الدبلوماسية الحديثة فهو بروز تصور أكثر ديمقراطية للعلاقات الدولية، بحيث كانت إدارة العلاقات الدولية خلال عصر الدبلوماسية القديمة والتقليدية توكل إلى صفوة من الرجال المختارين التى تتفاوض وتقرر سياسات بلادها وعلاقاتها، وهو ما تغير فى ظل نظم الحكم الديمقراطية حيث أصبح الرأي العام ذا تأثير بالغ على صانع السياسة ومنفذهما من خلال وسائل الإعلام، والأحزاب والاجتماعات الشعبية والبرلمانات والمظاهرات وصناديق الاقتراع. وهكذا أصبحت الدبلوماسية ذات طابع ديمقراطى Democratised Diplomacy بحيث أصبحت تسمى أحيانا بالدبلوماسية الشعبية People Diplomacy بما يعنى نفوذ وتأثير الأجهزة الشعبية والتمثيلية على العلاقات الخارجية وإدارتها.

وإذا كانت هذه هى العوامل الرئيسية فى التحول الذى حدث فى الدبلوماسية ونقلها من طبيعتها ومنهجها ومضمونها التقليدى الكلاسيكى إلى الدبلوماسية الجديدة ذات المضمون- والذى إن ظل يحتوى عناصر من مضمون الدبلوماسية القديمة، إلا أنه ازداد اتساعا وتنوعا فى موضوعاتها وغاياتها، كما اختلفت كذلك فى مناهجها وأدواتها، إذا كان الأمر كذلك، فما هى أهم الخصائص التى أصبحت تميز الدبلوماسية الجديدة والمعاصرة؟

لقد أظهرت العوامل التى كانت وراء هذا التحول عددا من خصائص الدبلوماسية الجديدة، فقد أصبحت تعمل مع بيئة دولية أكثر اتساعا وتعددا وتنوعا من التى كانت تعمل فيها الدبلوماسية القديمة، وأصبحت أدواتها أكثر سرعة وحركة بشكل يفوق بمراحل أدوات وحركة الدبلوماسية القديمة، واتسع نطاق القضايا والموضوعات التى تعالجها وينشغل بها الدبلوماسى وتشكل جدول أعماله اليومى، كما أصبحت تعمل فى ضوء

العلاية وتأثير ومتابعة وسائل الإعلام، وكذلك تحت تأثير المؤسسات الديمقراطية ويقظة الرأي العام.

بالإضافة إلى هذه الخصائص المرتبطة بعوامل التغيير التي طرأت على الدبلوماسية، ثمة خصائص أصبحت من المعالم الرئيسية للدبلوماسية المعاصرة. من أهم هذه المعالم أن الدبلوماسية اليوم أصبحت ما يمكن تسميته الدبلوماسية الشاملة أو الكاملة - Total Diplomacy. فلم يعد الدبلوماسي قانعا بممارساته التقليدية من حفلات ومآدب عشاء وغذاء واستقبالات، أو بكتابة التقارير والتحليلات والتنبؤات، إنما أصبح الدبلوماسي اليوم هو الذى يدير وينسق، نطاقا عريضا من النشاطات والاهتمامات العريضة لبلده المعتمد فيه وبحيث يمكن القول أن الدبلوماسي الحديث يجب أن يتوقع أن يعالج كل مظاهر الحياة البشرية إذ أن كل مظهر للوجود البشري أصبح اليوم تقريبا له بعض الأبعاد الدولية. الأمر الذى جعل من الدبلوماسية التى كانت يوما ما عملا بسيطا عملية معقدة ليس فقط نتيجة للعدد المتزايد من المشكلات والقضايا المعقدة والمتشابكة التى تواجه الدول منفردة والمجتمع الدولي، وإنما أيضا بالعدد المتزايد من الدول.

أما المَعْلَمُ الثانى والهام الذى أصبح يميز الدبلوماسية المعاصرة أصبحت تسمى بالدبلوماسية الترابطية Associative Diplomacy، وهى الصفة التى نجمت عن النمو المستمر فى تكوين المجموعات الإقليمية والدولية Groupings، وهو الاتجاه الذى يقصد به هذه المجموعات أن تشكل علاقات سياسية او اقتصادية أوثق مع دول أخرى تربطها بها روابط استراتيجية وسياسية واقتصادية وتجارية. ويبدو هذا الاتجاه واضحا فى توسيع وتعميق مجموعات كانت قائمة مثل السوق الأوروبية المشتركة EEC التى توسعت لى يصبح الاتحاد الأوروبى EU وأصبحت تضم اليوم ١٥ عضوا ولم تتسع فى العضوية فقط وإنما كذلك فى طبيعة الروابط بينها بحيث أصبحت تتجه وفقا لمعاهدة ماسترخيت ديسمبر عام ١٩٩١ إلى الوحدة السياسية والنقدية والاقتصادية. وعلى المستوى الآسيوى، نجد رابطة دول جنوب شرقى آسيا الآسيان (Association of South East Asian Nations) ومنتدى التعاون الاقتصادى لدول آسيا والباسفيك (Asia Pacific Economic Cooperation) ثم تجمع الـ NAFTA: الذى يضم الولايات المتحدة، وكندا، والمكسيك.

بالإضافة إلى ظهور تجمعات فرعية Sub-Groupings فى النطاق العربى : مجموعات الدول الخليجية التى تجمعها مجلس التعاون الخليجى Gcc ، والدول المغاربية التى يجمعها اتحاد المغرب العربى ، وفى النطاق الأفريقى : مجموعة دول غرب أفريقيا ECAWAS ، مجموعة الجنوب الأفريقى SADAC ، وفى الإطار اللاتينى مجموعة الميكروسول Micro-sole وهى المجموعات الفرعية التى تعمل بجوار المنظمات الإقليمية الأوسع مثل : منظمة الجامعة العربية ، ومنظمة الوحدة الأفريقية ، ومنظمة الوحدة الأمريكية .

ويتطور على مدى الحقتين الماضيتين نمو ملحوظ للدبلوماسية المعاصرة ، وخاصة حول قضايا اجتماعية واقتصادية وفنية ، أو ما أصبح يعرف بالقضايا العالمية Glopal Issues وهى القضايا التى أصبحت عمليا تشكل جدول أعمال للاهتمامات الملحة للمجتمع الدولى وتفرض بطبيعتها المتشابكة وآثارها الممتدة التى تعدى حدود الدول بل والقارات ، ويصبح من الصعب على دولة واحدة مهما كانت إمكانياتها أن تواجهها منفردة ، ولهذا تتطلب جهدا وتنسيقا جماعيا ، ومثل هذه القضايا هى التى أنعقدت حولها - وتأكيدا للصفة الدولية لها تحت رعاية الأمم المتحدة ، مؤتمرات مثل البيئة ، والسكان والتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وحقوق الإنسان ، والمرأة إلى جانب قضايا عريضة أخرى تنتظر وتتطلب جهدا دوليا جماعيا مثل : الإرهاب الدولى ، والجريمة ، والهجرة والأمراض ، والتلوث والانتشار النووى . إلخ .

وقد فرضت هذه المهام الجديدة ، على الأجهزة الدبلوماسية أن تعيد تنظيم هياكلها وأولوياتها بحيث أصبحت الإدارات والأقسام التى تعالج هذه القضايا لها الأولوية على غيرها من الإدارات التقليدية التى تعالج القضايا السياسية ، وانسحب هذا على الأفراد الذين يتولون هذه المهام ، وأصبح هناك تنافس بين أعضاء الأجهزة الدبلوماسية على العمل والتخصص فى هذه الأنشطة الجديدة ، والتى أصبحت تتطلب ثقافة وتكوينا جديدا ، وأصبح ترتيب حضور مثل هذه المؤتمرات وكذلك احتمال تنظيمها موضوعيا ، وإداريا ، وفنيا من أهم مايشغل وزارات الخارجية التى تتولى مسؤولية هذه المؤتمرات الدولية التى تعقد فى بلادها حتى تلك التى تعالج قضايا بعيدة عن القضايا السياسية التقليدية . سواء من حيث المشاركة الدولية فيها أو من ناحية التنظيمية وإعداد الكوادر الفنية اللازمة : السكرتارية ، والترجمة ، ومصاحبة الوفود الزائرة . إلخ .

غير أنه مع الأهمية التي أصبحت للدبلوماسية المتعددة في مثل هذه القضايا العالمية لتأثيرها المتزايد علي فرص استقرار السلام والأمن الدوليين، إلا أن الدبلوماسية المتعددة أصبحت تمارس الآن بشكل متزايد في مجال هام آخر وهو العمل على تحقيق حلول للصراعات Conflict Resolution خاصة بعد أن تعقدت مثل هذه الصراعات وتعمقت بدخول عوامل عرقية ودينية، وبعدان بات من الصعب على دولة واحدة- حتى ولو كانت قوة كبرى أن تحقق بمفردها حلا لمثل هذه الصراعات.

غير أن الخبرة قد أظهرت أن فعالية الدبلوماسية المتعددة في تحقيق حلول لهذه الصراعات يرد عليها قيود عديدة أو سوف تظل عاجزة تقريبا طالما أصرت أطراف الصراع علي إدارة صراعهم بالوسائل العسكرية، ولا تبدأ الدبلوماسية المتعددة في ممارسة دور فعال إلا بعد أن تستنفذ أطراف الصراع جهودها العسكرية وتصل المواجهة العسكرية بينهم إلى مرحلة الجمود Deadlock، كما تظهر خبرات الصراعات في الشرق الأوسط، وكمبوديا، وأنجولا وأخيرا في البلقان.

ولعل من أهم ما أصبح يميز البيئة الدبلوماسية الجديدة هو تأثيرها بوسائل الإعلام والعلانية التي تفرضها عليها. ويسجل مؤرخو الدبلوماسية بدء تصدع نظام الدبلوماسية القديمة بتراجع طابع التكتم والسرية والخصوصية التي كانت تتميز بها العملية الدبلوماسية، وخاصة أهم جوانبها وهي المفاوضات. وثمة أمثلة حديثة تظهر تأثيرها وسائل الإعلام على الاتصالات الدبلوماسية وخاصة خلال الأحداث الدقيقة، وقد بدا هذا واضحا خلال أزمة الرهائن الأمريكيين في إيران وحيث كانت الاتصالات حولها والجانب الأمريكي تحت ضغط إثارات وسائل الإعلام ومتابعاتها لحظة بلحظة للأزمة، كما بدا ذلك أيضا خلال أزمة الخليج والتي كانت فيها وسائل الإعلام طرفا أساسيا ومؤثرا في اتجاه الأزمة وتناولها. وخلال عملية التفاوض وجلساتها يعمل المتفاوضون وفي أذهانهم ماذا سيقولونه لأجهزة الإعلام ومراسليها الذين يترصدون بهم ويلاحقونهم بعد انتهاء كل جلسة ويعلم كل جانب أنه وهو يخاطب وسائل الإعلام عن مجرى المفاوضات وماحققته من نجاح أو فشل، إنما يخاطب الرأي العام في بلاده بكل اتجاهاته ومواقفه من موضوع المفاوضات. ولعل إدراك تأثير ذلك على عملية التفاوض وإمكانات نجاحها هو الذي يدفع إلى ترتيب إجراء المفاوضات وخاصة حول القضايا المعقدة والشائكة في معزل تام عن عيون أجهزة الإعلام وهو ما رأيناه في مفاوضات كامب دافيد حول قضية الشرق الأوسط، وكذلك

حول جو العزلة والسرية المطلقة التي أحاطت بالتفاوض بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية للتوصل إلى إتفاق إعلان المبادئ واختيارهم بيئة في أقصى الشمال الأوروبي وهي النرويج لعقد هذه المفاوضات، كما تم ترتيب نفس الأجواء المنعزلة للمفاوضات التي عقدت في دايتون بولاية أوهايو الأمريكية بين الأطراف المتصارعة حول البوسنة والهرسك.

على أية حال فإذا كان النظام الدبلوماسي يعيش الآن عصر الدبلوماسية الجديدة بمكوناتها وخصائصها التي أسلفناها، إلا أن علينا أن ندرك أنه من المنظور النظرى والعملى فإن الدبلوماسية كأي مؤسسة بشرية هي عملية ديناميكية تتعرض لتغيرات الزمن وماياتى به من قوى ومؤثرات جديدة، لذلك نجد أن كل عصر يمر بتجديد جوهرى فى أساليبه وصيغه الدبلوماسية، الأمر الذي يتوقع معه بعض مؤرخى دبلوماسية أن صيغة اليوم من الدبلوماسية التي نصفها بأنها جديدة يمكن تختلف عن تلك التي سنجدها فى المستقبل.

والواقع أنه فى معالجتنا للواقع الذى تعمل فيه الدبلوماسية الجديدة والقوى التي تتفاعل معها، فتتأثر بها وتؤثر فيها، فإننا لا يجب أن نغفل قوى للتأثير أصبح لها تداخل واضح مع الدبلوماسية ونعنى بها كلا من الإعلام Media وأجهزته، وكذلك المؤسسات الأكاديمية وشخصياتها Academia :

الإعلام والدبلوماسية

فقد أصبحت الصحافة بوجه خاص ووسائل الإعلام الأخرى وخاصة الإذاعة والتلفزيون، من العوامل المؤثرة التي يعمل حسابها فى العلاقات الدولية فى عالم اليوم. والهدف الرئيسى للصحافة هو نقل المعلومات للجمهور المتعلم، وهى فى هذا عكس الدعاية Propaganda والتي تهدف الى أن تفعل كل ما هو ضرورى للتأثير على العقل العام فى الاتجاه الذى تهدف إليه الدعاية. وفى كل دستور ديمقراطى فإن حرية الصحافة معترف بها ومضمونة. والصحافة الحرة فى بلد ما يفترض أنها تدخل وتوزع المعلومات دون خوف أو مبالاة وبدون تدخل من جانب أى سلطة أيا كانت، وعلى هذا فإن حرية الصحافة هى رمز على الفكر الديمقراطى. وعلى هذا فإن سلطة رابعة قوية سوف تمارس دائما تأثيرا هاما على الفكر السياسى والاقتصادى وفى الواقع على الرأى العام ككل. وقد تأكد هذا الدور الذى تقوم به الصحافة مع ارتفاع نسبة التعليم فى العالم، وما أصبح الرجل العادى فى أى مكان فى العالم يعتقدده حول حرمة الكلمة المطبوعة وهو بهذا يعتبر أن أى رأى

وتعليق مطبوع في جريدة يجب أن يكون صادقا، وهكذا فإن الصحافة تقوم بواجب هام جدا في تعليم الرأي العام ونقل الأخبار الصادقة ووجهات النظر الصحيحة إليه، ولهذا فإذا كانت الصحافة غير حرة أو يساء توجيهها في تحمل مسئولياتها فإنها من المحتمل أن تؤدي إلى نتائج خطيرة.

أما في البلدان ذات الديمقراطيات الموجهة أو التحكم فيها من جانب الدولة، فإن الصحافة تستخدم كأداة للترويج لأهداف الحزب الحاكم ورجاله. وفي الدول الشمولية Totalitarian فإن الصحافة تقع تحت سيطرة الدولة طالما أن السياسات التي توجه هذه النظم هي توجيه الفكر والعمل وفقا لمبادئ ونظريات هذه النظم إنما تستهدف بشكل جوهري إلى تعزيز سلطة الدولة وهي في كثير من الأحيان خالية من أى تفكير حر أو رأى أمين.

بهذه الرؤية للنفوذ والتأثير الذى تمارسه الصحافة فى مختلف النظم السياسية فى التأثير على الرأى العام وتوجيهه وكذلك فى عكسها مختلف التيارات والأفكار والمواقف فى النظم الديمقراطية الحرة، ولفكر النظم الحاكمة فى الدول الشمولية، وطالما أن من أول أهداف الدبلوماسية ووظائفه هو أن يكون على إلمام ومعرفة دائمة بالأحداث والاتجاهات فى الدولة المعتمد لديها، ولذلك فإن المتابعة الدقيقة لما تنشره صحافتها تصبح من أهم مهامه اليومية. فى هذا ، يتأثر الدبلوماسية بطبيعة النظام وحالة الديمقراطية ومن ثم حرية أو تقييد الصحافة فى البلد المعتمد فيها. فإن الأمور بالنسبة له قد تبدو أنها أوضح وأكثر تحديدا فى حالة الصحافة التى تتحكم فيها الدولة إذ أنه فى هذه الحالة فإن ماتنشره هذه الصحافة من أخبار أو تعليقات ووجهات نظر إنما يعكس إلى حد كبير ويعبر عن سياسات الحكومة، أما فى الدول ذات الصحافة الحرة فإن الوضع أكثر تعقيدا بكثير حيث أن الصحف تعكس من التيارات والمواقف والآراء والمصالح بعدد تعدد التيارات والأحزاب والقوى السياسية والمصالح الاقتصادية فى هذا البلد. ويترتب على ذلك أن تكون مهمة المبعوث الدبلوماسى فى الحاله الثانية وحيث ماتعبر عنه الصحف لايعكس بالضرورة، مواقف الحكومة ونواياها بقدر مايعكس رؤية ووجهات نظر ومصالح هذه الصحف والتيارات التى تعبر عنها، غير أن هذا لايبنى أن الصحف فى المجتمعات الديمقراطية لاتقدم معلومات يعتمد عليها ومفيدة فى التعرف على الأوضاع والتطورات وكذلك المواقف من القضايا المختلفة، غير أنها تحتاج من الدبلوماسية لقدر غير قليل من الدقة، والحرص على تتبع هذه الأخبار والمعلومات لدى

المصادر الرسمية للتأكد من قربها أو بعدها من الحقيقة وأكثر من هذا من تعبيرها عن المواقف الحقيقية للحكومة. وبمثل هذا تحديا حقيقيا للدبلوماسية الذى يمكن أن يقع تحت إغراء خبر هام حول وضع أو تطور محلى أو إقليمى أو دولى، خاصة إذا كان يهم دولته ويتصل بمصالحها، ويسارع بإبلاغه لدولته أو يبنى عليه تقييماته وتوجيهاته قبل أن يتحقق من دقته وصحته..

فى ضوء هذا الدور الذى تلعبه الصحافة وأجهزة الإعلام الأخرى فى التأثير على وصياغة العقل العام فى مجتمعاتها، وماتمله من مصادر معلومات، أصبح من الضروري أن يقيم الدبلوماسية علاقات منظمة، ولكن منضبطة، مع ممثلى الصحافة، وأن يكونوا دائما على قائمة دعواته ومناسباته الاجتماعية، بل وكذلك لقاءات دورية محدودة خاصة مع المعلقين وكتاب الرأى وبالأخص على المهتمين والمتخصصين فى شئون بلاده ومنطقتها، ومثل هذه اللقاءات يقدم فيها الدبلوماسية مادة يعتمد عليها مثل هؤلاء الكتاب والصحفيين والمعلقين فيما يكتبونه عن قضايا تهم الدبلوماسية، وتأخذ هذه المادة عدة مستويات ابتداء من الـ Background Information حول خلفيات وأصول تطور سياسة ما، حتى تفسير دوافع وحقائق حدث قائم والاعتبارات التى تحكم بلاده منه، ومثل هذا الشرح يساعد على أن يجنب الكاتب سوء الفهم أو سوء التقدير أو ربما تسوية هذا الموقف. ولا يقتصر مايجب أن يطره الدبلوماسية من قنوات اتصال مع ممثل الصحافة على الكتاب والمعلقين السياسيين، بل يجب أن يشمل المتخصصين منهم فى مجالات قد لاتقل أهمية عن الشئون السياسية مثل الثقافة، والسياحة، ومن يكتبون فى شئون المال والاقتصاد بل والرياضة، وجميعها مجالات أصبحت تتصل بالاهتمامات اليومية للدبلوماسية وباهتمامات بلاده وتمثل نسيج علاقاتها بالدولة التى يعمل فيها الدبلوماسى.

الدبلوماسية والمؤسسات الأكاديمية

ثمة توتر تقليدى ومعروف- فى كل فروع المعرفة والنشاط البشرى- بين أصحاب النظريات Theroists وجامعاتهم ومراكزهم البحثية، وبين الممارسين Practicioners الذين يعملون فى الحقول العملية والتنفيذية وخاصة الذين يديرون شئون الحكومات وينفذون برامجها وسياساتها. وقد بدا هذا التوتر بين الجانبين بشكل أوضح فى مجال العلاقات الدولية والسياسات الخارجية وأداتها المنفذة لها وهى الدبلوماسية ومثليها. وتقليديا نشأ

جدل دائم دافع كل جانب عن قضيته ووجهة نظره، المستقبلية بالدبلوماسية يمتلكهم الشك حول صلاحية نظريات الأكاديميين لتطبق في حالات محددة، فالنظريات عندهم ليس لها إلا دور أصغر تلعبه في صياغة السياسات من الحقائق في الاقتراب من الدبلوماسية ومجالاتها الدقيقة والتي تخضع لاعتبارات معقدة بأفكار ونظريات محددة ثابتة لا يمتلكون المرونة الضرورية للتعامل مع عالم متغير، وقد يضطرون أمام هذا العالم إلى الرجوع عن نظرياتهم المسبقة أو تطويرها^(*). ويرد الأكاديميين بقوة على هذا بأن الدبلوماسيين يميلون إلى إضفاء القداسة على الأوضاع التي يعملون فيها الأمر الذي يجعلهم مترددين في أن يعترفوا بأن هذه الأوضاع يمكن أن تتعرض بسرعة للتغيير الجذري، فطالما أنهم معتمدون لدى نظم قائمة فإن التيارات الثورية تقع خارج نطاق واجبههم ولهذا فهم يفاجأون حين تنفجر فجأة هذه النظم. كما ينتقد الأكاديميون الشكليات التي يربط بها الدبلوماسيون أنفسهم والتي تأخذ جانبا كبيرا من وقتهم وتجعلهم غير قادرين على التجديد ويرد الدبلوماسيون بأنهم إذا كان تفكيرهم لا يتسم بالدقة فإن هذا لا يرجع إلى كسل عقلي وإنما لأن الدبلوماسية هي في الحقيقة علم دقيق، وفي تعبير أحد الدبلوماسيين «إن الرجال يتصرفون في الدبلوماسية لأن من واجبههم ذلك، فبدائلهم مقيدة، وخياراتهم تحيط بها العوائق، والأرض التي يقفون عليها ليست تماما من اختيارهم».

هكذا حكمت العلاقة بين الأكاديميين والدبلوماسيين شعورا بأنهما يمثلان عالمين متباعدين كلا منهما قاصر على نفسه ومغلق على الآخر، فعالم الدبلوماسية والسفراء هو عالم السرية والغموض والمراوغة والإخلاص للمفاهيم المطلقة المنقعة بالعبارات النسبية، أما الوسط الأكاديمي فهو يتميز بالوضوح والتكامل والجرأة وحب المشاكسة وحرية التفكير والتعبير.

غير أن هذا التوتر والجدل التقليدي بين الأكاديميين والدبلوماسيين بدأ يتحرك نحو التلاقى وإدراك كل جانب أنه في حاجة للآخر، فالأكاديميون بدأوا يدركون أنهم في حاجة إلى الخبرة والممارسة العملية للدبلوماسية والتي تظهر لهم كيف تتحقق نظرياتهم في الواقع، ورغم أنه من الصعب تصور أستاذ للجراحة لم يمارس أبدا عملية جراحية واحدة، إلا أن هناك العديد من أساتذة العلاقات الدولية الذين لم يتفاوضوا حول عقد اتفاقية أو

(*) يستطيع أصحاب هذا الرأي أن يدللوا عليه بمثال بارز في شخص وزير الخارجية الأمريكي الأسبق هنري كيسنجر والذي جاءت ممارساته الدبلوماسية في كثير منها مخالفة للكثير مما فكر فيه وماصاغه من نظريات حول عدد من القضايا الدولية خلال مرحلته الأكاديمية.

تنافسوا حول قضية في محفل دولي. أما الدبلوماسيون فقد بدأوا يدركون أن العلاقات الدولية تزداد تعقيدا وتشابكا وأنها لم تعد بالبساطة التي يمكن الاعتماد في فهمها على الفطنة والذكاء والمناورة والدبلوماسية، وإن ممارستهم لعملهم الدبلوماسي سوف تكتسب قيمة ومعرفة أعمق بجوانب الوضع الذي يعالجونه أو يتحدثون عنه. وقد يساعد على هذا التلاقي والتطور الواضح في العقدين الأخيرين في عدد المراكز البحثية والأكاديمية سواء في داخل الجامعات أو المستقلة، كما يساعد على هذا العناصر الدبلوماسية التي انتمت للمجتمع الأكاديمي بما حصلوا عليه من درجات علمية أو بما يتمتعون به من ثقافة سياسية أو خبرات معترف بها، وقد ساهم هؤلاء في بناء الجسور بين المؤسسات الأكاديمية والدبلوماسية. ونشهد على الواقع نتيجة هذا التحرك على الجانبين، وإن كان في رأى البعض يأتي من جانب الدبلوماسية أكثر منه من الجانب الأكاديمي فالأجهزة الدبلوماسية تميل الآن إلى الاستعانة بالخبرات الأكاديمية في العديد من المؤتمرات فتضم عناصرها منها إلى وفودها الدبلوماسية وخاصة في المؤتمرات والمحافل التي تعالج قضايا تتصل بالمنظمات الدولية. فالوفد المصري في مؤتمر مدريد الدولي للسلام في الشرق الأوسط-ديسمبر ١٩٩٢- ضم ٤ من أساتذة العلوم السياسية والقانون الدولي وعلم النفس. كما أن اللجنة القومية التي شكلتها الخارجية المصرية للباحث حول قضية طابا ضمت إلى جانب العناصر الدبلوماسية أساتذة في القانون الدولي والتاريخ. وفي اتجاه التلاقي والتفاعل بين المؤسسات الأكاديمية والدبلوماسية، أصبح من تقاليد عدد من الجامعات والمراكز البحثية المحترمة وذات التقاليد والمكانة الدولية، أن تسعى لكي تضم إليها في صورة Fellows أو Senior Fellows شخصيات دبلوماسية من التي عرف عنهم امتلاكهم لأساس علمي ومن الذين عملوا وحصلوا على خبرة دبلوماسية من المراكز الهامة التي عملوا فيها وفي مناطق ذات أهمية خاصة مثل: الاتحاد السوفيتي السابق، والشرق الأوسط مع أن عددا من هذه الجامعات والمراكز البحثية وخاصة في العالم المتقدم أصبحت تقدم منحاً دراسية للدبلوماسيين من العالم الثالث بوجه خاص، وترحب وزارات الخارجية- في بلدانهم بذلك اعتقاداً بأن هذا سوف يساهم في تكوينهم العلمي ويفيد في أدائهم الدبلوماسي. كذلك أصبح من الظواهر المألوفة دعوة الجامعات والمراكز البحثية للدبلوماسيين لكي يشاركوا فيما تعقده من مؤتمرات وندوات حول قضايا إقليمية ودولية.

وقد أقنعت عدد من التجارب المؤسسات الدبلوماسية أهمية الاهتمام بما تقوم به الجامعات ومراكز الدراسات من أبحاث وماتضمنه من توصيات ومقترحات حول عدد من

القضايا والمنازعات الإقليمية والدولية، ذلك إن ثبت أن بعض هذه الدراسات يمكن أن تنبأها الحكومات والمؤسسات الرسمية أو تستفيد منها في صياغة بعض مبادراتها في السياسة الخارجية، فالدراسة التي أعدها معهد بروكينجز موا Brookings Institute في واشنطن حول النزاع العربي الإسرائيلي في نهاية السبعينيات، كانت هي الأسس التي بنت عليها إدارة كارتر سياستها تجاه الشرق الأوسط وكان هذا التقرير الأساس الذي طرحته في مفاوضات كامب دافيد بين مصر وإسرائيل. كما كان العمل البحثي الذي قام به معهد فافو للبحوث الاجتماعية في الترويج حول الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الأراضي الفلسطينية المحتلة هو الأساس والمدخل للدور الترويجي في جمع إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في توصلهم إلى اتفاق إعلان المبادئ في ١٩٩٣.

ومن الخبرات العملية الحديثة، أصبحت مراكز البحث تستخدم، وبرعاية وتشجيع وزارات الخارجية، لترتيب ندوات حول بعض المنازعات الإقليمية، بهدف استكشاف مواقف أطراف النزاع من خلال عناصر أكاديمية ذات صلة بالأجهزة الرسمية. وقد تعكس - دون ارتباط رسمي - مواقفها. كما أصبحت المراكز الأكاديمية قنوات غير مباشرة لنقل رسائل إلى المؤسسات الدبلوماسية وتلقى انطباعاتها واستجاباتها.

والواقع أن عددا من كتاب الدبلوماسية ومؤرخيها خاصة من دول العالم الثالث، الذين يرصدون هذا التطور في العلاقة بين المؤسسات الأكاديمية والدبلوماسية يتوقفون بوجه خاص حول مزايا وإيجابية هذه العلاقة بالنسبة لسفراء ودبلوماسي العالم الثالث من حيث الارتباط بعلاقات إيجابية ونشطة، وصلات منتظمة مع المراكز الأكاديمية وشخصياتها، وخاصة في العالم المتقدم، من زاوية مايمكن أن تمثله هذه العلاقة من إيجابيات بالنسبة لصالح واحتياجات واهتمامات بلدان العالم الثالث. فهذه المراكز الأكاديمية هي موطن البحث العلمي المتقدم والتخصصات المتقدمة وفي مجالات هامة مثل تكنولوجيا الزراعة والغذاء والمياه والهندسة والإدارة، لذلك فإن نجاح السفير في ربط جامعات بلد وأساتذتها وباحثيها وطلابها بهذه المراكز الأكاديمية المتقدمة يمكن أن يقدم خدمة جليلة لاحتياجات أساسية لعملية التنمية في بلد الدبلوماسي النامي. ويتحقق هذا الربط من خلال علاقات تعاون مؤسسية، هي العلاقات التي سوف تتيح تقديم هذه الخبرات أساسا من خلال تبادل الأساتذة والتي ستتيح خاصة للباحثين من دول العالم الثالث التعرف بشكل مباشر على مناهج وأدوات البحث العلمي ونتائجه في الدول المتقدمة. وحين يكون الأكاديمي والباحث يمثل بلاده في البلد المعتمد لديها فإن مهمة السفير ومعاونيه إنما تمتد إلى خلق

الفرص لهم وتوسيع دائرة اتصالاتهم وتقديمهم إلى نطاق واسع من المؤسسات المستقلة باهتماماتهم.

ولا يقتصر نشاطات السفير في هذا المجال على الشخصيات الأكاديمية، وإنما تمتد لتشمل الطلاب والدارسين من بلاده الذين يدرسون في الجامعات، فالإبقاء على صلات منتظمة معهم هو أمر حاسم بالنسبة لهؤلاء الطلاب الذين يحتاجون إلى الإحساس بالهوية القومية في بيئة أجنبية، ولذلك فالاحتفاظ بصلات منتظمة معهم يساعد على جعلهم على دراية دائمة بالأمر الداخلي لبلادهم ومن ثم تقوية روابطهم بوطنهم. فالسفير وأعضاء سفارته بالنسبة لهؤلاء الطلاب والدارسين هم رمز للسيادة الوطنية واحترامهم لأنفسهم وهو أمر على جانب كبير من الأهمية والحساسية للطلاب، وعلى مستوى آخر فإن السفير لا يمثل فقط حكومته ولكن كذلك مجتمعه واهتمامه برافيتهم وبما يحققونه في دراستهم وتوقعهم لعودتهم، وهم ينظرون إلى السفير باعتباره مرجعهم وقناة هامة لاتصالهم بحكومتهم واتصال حكومتهم بهم.

كما يقدم زيارات السفير أو الرجل الثاني له للدارسين من بلده في جامعاتهم فرصا حقيقية للتعرف والاتصال بالتجمعات الطلابية والذين يمكن أن يدعوه إلى ندواتهم والتحدث أمامهم.

غير أن فرصا وفعالية علاقة مثمرة بين سفراء ودبلوماسي العالم الثالث بالمراكز الأكاديمية في العالم المتقدم تعتمد إلى حد كبير على المستوى المقنع علميا وشخصيا الذي يبدو به هؤلاء السفراء وعلى وضوح وعمق الرسالة التي يحملونها، وسوف يجدون أن الوسط الأكاديمي يفضل أن يستمع إلى سفير بليغ ومؤثر من دولة صغيرة على سفير من دولة كبيرة يكتفى بتكرار مواقف بلاده والبيانات المعروفة لرسميها. وبهذا المعنى فإن الجامعات تمثل منابر يعتمد على ما اكتسبه من احترام في دعوة سابقة، وهذا الاحترام لايتأتى من البلد التي يمثلها أو المكانة التي يشغلها وإنما بما عكسه من قدرات ثقافية جذابة ومؤثرة وفي لقاءات طلابية تمثل أهمية وخبرة غير مالوفة للطلاب، فهم يشعرون أنهم على أرضهم وأنهم أحرار في المناقشة وإصدار أحكامهم النقدية، وأنهم يتحدثون مع من يمارسون العمل الدبلوماسي وينفذون النظريات التي يدرسونها ويتعاملون مع الواقع بشكل عاجل، وبإحساس بأن عالم النظريات يختلف عن الواقع لذلك فإن الطلاب ذوي الحساسية والذكاء يحرصون على أن يلمسوا كيف تعمل العلاقة بينهما.